كلمة مندوب جلالة الملك المعظم
الدكتور ناصر الدين الأسد

أيها العلماء الأجلاّء

أيها السيدات والسادة

ليس أبهج لنفسي، ولا أدعى الى اعتزازي، من أن أقف هذا الموقف، لأنقل تحيات صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين، الى هذا النفر الكريم من علماء العربية وحُماتِها، الذين وفدوا الى بلدهم الأردن من أقطار وطننا العربي الكبير، يحدوهم الحرص على لغتهم التي هي رابطة شملهم، ونظام عقدهم، وقوام شخصيتهم، ووعاء حضارتهم، ومستودع فكرهم، والتي كرّمها ربّ العالمين، وكرّمنا معها، حين جعل بها كلامه ووحيه «نزل به الروح الأمين» «بلسان عربي مبين».

ولولا دواعي الواجب المتلاحقة التي تهيب بجلالة الحسين، فيوزّع عليها جهده، ويقسم بينها وقته، في الداخل والخارج، وفي الحلّ والترحال، لكان الآن بينكم: يرحّب بكم، ويسعد بالتحدث اليكم

والاستماع منكم، ويفضي لكم بمكنون نفسه، في أمر هذه اللغة التي تشغل باله، والتي يراها أمانة آلت اليه، ورسالة ورثها من الثورة العربية الكبرى التي قادها جدّه الحسين بن علي طيّب الله ثراه منذ سبعين عاما، غضبا لدينه وأمته ولغته، حين أخذت القوى المغالية المتعصبة في الدولة الحاكمة آنذاك تضطهد هذه الأمة العربية، وتستهين بلغتها، وتستبدل بها لغة أخرى: في التعليم، والصحافة، وميادين الثقافة والحياة المتعددة. وورث شبلا الحسين بن علي: عبدالله وفيصل، هذه الامانة، فلم يكد يتسلّم الملك فيصل مقاليد الامور في سورية حتى قلب موازين اللغة هناك، فقد جاءها وليس في أعمالها الرسمية والتعليمية الا اللغة التركية، وتركها بعد سنة واحدة واشهر، وليس فيها الا اللغة العربية بفضل من أحاط به، وعمل معه، من رجالات العرب الأشاوس الحرصاء على امتهم ولغتهم. فأنشئ حينئذ المجمع العلمي العربي بدمشق، وانتشر استعمال اللغة العربية في الادارة ودواوين الحكومة والجيش، وفي التعليم في جميع مراحله، وخاصة التعليم الجامعي في الحقوق والطب، وكان ذلك كلّه هو الأساس المتين الراسخ، الذي قام عليه البنيان الشامخ، في التعليم الجامعي السوري حتى يومنا هذا، ظلّ ثابتا تتكسّر دونه صيحات الناقمين من جهلاء امتنا والحاقدين من اعدائنا، واخفقت دونه جهود المستعمر الفرنسي على مدى ربع قرن.

وبدأ عبدالله بن الحسين منذ الايام الاولى لتأسيس امارة شرقي الاردن باعلاء شأن اللغة العربية وتوطيد دعائمها، حتى اصبحت هي اللغة، في كل جوانب الحياة، لا تعلو عليها لغة اخرى، وان جاورتها لغات كانت دائما وراءها، لا تجرؤ على ان تحلّ محلها.

ان هذا البلد الـذي ورث رسـالة الثورة العربية الكبرى، وإن ملكه العربي الهاشمي الذي ورث رسالة جدّهِ الكبير الحسين بن علي، انما ورثا ـ فيما ورثاه ـ حماية اللغة العربية، واعلاء شأنها، وتوطيد مكانتها، فهي لغة الاسلام ولغة العرب، بغيرها لا استمرار لهما ولا بقاء. وتحية الحسين لكم، وترحيبه بكم، وفرحته بهذا اللقاء، في مجمعكم الاردني للغة العربية، وفي بلدكم الاردن، انما هو على اساس من رسالة يؤمن بها، وليس مجرد كلام يقال في مناسبات عابرة. واذا رأيتم في هذا البلد مظاهر تختلف عمّا قلت، فهي من الشـوائب التي انـدسّت الى بعض جوانب حياتنـا العامة وحياتنا التعليمية، ولا بد من التخلص منها لتصفو لنا أصالة وجودنا وليتحقق ازدهار مستقبلنا.

أما بعد،

فاني استأذنكم ـ أيها العلماء الأجلّاء ـ في ان اجوس خلال دياركم، متفيئا ظلالها، لأقطف بعض ثمارها، فأعرضها عليكم لتروا فيها رأيكم: ذلك اننا نرى احيانا عند غيرنا من الامر ما يستهوينا، فنحب ان يكون عندنا، ونظنّ انه وسيلة الحضارة وسبب التقدم. نرى امرا هنالك فنريده هنا، دون معرفة بتغاير الحالتين واختلاف الطبيعتين، وشتّان ما هما، وما أبعد الذي بينهما! رأينا هناك المظهر فلم نسبر المخبر، واعجبتنا هناك الصفة فلم ندرك حقيقة الموصوف، على حين اتضح ذلك كله لشاعرنا ابي الطيب حين قال:

وقـد يتقـارب الـوصفان جدّاً ... وموصوفاهمـــــا متباعـــــدان

والأساليب التي تصلح للغة واحدة ـ او لمجموعة من اللغات ـ لأنها تتفق وخصائصها وتناسب طبيعتها، لا تصلح بالضرورة للغة اخرى تختلف

عنها في الطبيعة والخصائص. واللغة العربية لغة اشتقاقية، وأكثر اللغات الاوروبية تركيبية، واللغة العربية معربة، واللغات الاوروبية الحديثة فقدت ابنية اعـرابهـا كلّهـا او جُلّها. ولا بدّ للناظر في أساليب النهوض باللغات وتطويرها من ان ينظر في طبائع تلك اللغات لمعرفة مدى مناسبة الاسلوب لتحقيق غايته، والاّ انتهى الامر الى نقيض المقصود.

ومن أمثلة ذلك اننا تعلمنا ـ فيما تعلمنا ـ ضرورة تعويد الطلاب القراءة الصامتة التي لا تتحرك فيها شفاههم، والتي تخطف فيها عيونهم الكلمات والجمـل خطفا، لأن هذه القراءة الصامتة تزيد من سرعة القراءة وتختصر الـوقت الذي يقضيه المرء في المطالعة، في زمن تكاثر فيه نتاج المطابع وتفجرت فيه المعرفة، واصبح المرء لا يستطيع ان يتابع كل ذلك اذا لم يسـرع في القراءة ويوفر اكبر وقت ممكن. وهذا كله صحيح عندهم وفي لغتهم الانجليزية، لأن كلمات لغتهم ـ كما يقولون ـ تكتب كما تقرأ وتقرأ كمـا تكتب، وهو قول يحتاج الى فضل تمحيص، ولانهم ايضا يتعلمون لغتهم من الكتاب ولا يحتاجون الى السماع، ولذلك كثرت في لغاتهم كتب بعنوان «تعلم اللغة بغير معلم». ولكن الامر في لغتنا على خلاف ذلك، فهي لغة اشتقاقية معربة منقوطة، والاختلاف في أبنية كلماتها وفي موازينها للدلالة على المعاني المختلفة انما يكون بتغير الحركات وبعض الحروف. ومن قديم وقع التصحيف والتحريف لان بعض المتعلمين كانوا يأخذون من الكتب، ولم يسمعوا من الشيوخ المعلمين. وأصبح الاخذ عن الشيخ عرفاً تتميز به مجالس العلم ودور التعليم في حضارتنا، استمر قرونا الى ان اخذنا طريقة «القراءة الصامتة» وطبقناها على اطفالنا وناشئتنا، قبل ان يتمكنوا من

لغتهم، ويسيطروا على مخارج حروفها واساليب نطقها؟ ألا يحتاج الامر اذن الى رويّة، والى فحص الأسلوب المستورد وطبيعة اللغة لمعرفة مدى التوافق بينهما، حتى لا يكون الاسلوب المرجوّ للنجاة سببا آخر من اسباب الضياع والهلاك؟

ومن أمثلة ذلك أيضا أن أهل التعليم في بعض البلاد الأخرى أخذوا بطريقة تعليم الاطفال الكلمة كلها، جملة واحدة، قبل البدء بتعليم الحروف مفردة. وتعبنا في اقتباس هذا الاسلوب، وتخبطنا، الى ان صار الطفل يقضي في المدرسة اربع سنوات او تزيد ولا يزال يجهل قراءة سطر واحد من غير الكلمات التي حفظها، واصبحنا نشكو من ان بعض هؤلاء الاطفال لا يزالون يجهلون كتابة اسمائهم صحيحة بعد هذه السنوات من التعلّم. وقد ادركت امم اوربية أخرى الفروق بين لغاتها في الطبيعة والاصول وبناء الكلمات وصياغة التراكيب، وخاصة تلك اللغات الأوربية التي لا تزال تحتفظ ببقايا من الاعراب، فلم تأخذ بهذا الاسلوب في تعليم لغاتها، لانه لا يستقيم به امرها. ونحن اجدر من تلك الامم بأن نتأنّى وندرس الفروق بين طبائع اللغات، ونعرف ما يصلح للغتنا فنأخذ به، قبل أن يستهوينا اسلوب غريب عن طبيعة هذه اللغة لأنه نجح عند غيرنا.

ومن أمثلة ذلك ايضا: أنه شاعت عند غيرنا طريقة تعليم الادب وتاريخه: نثره وشعره، على اساس البدء بالعصور الحديثة ثم الرجوع منها الى العصور التي سبقتها عصراً عصراً. وتلك طريقة لا مفرّ منها، ولا بديل عنها، في آداب تلك الامم، لأن لغاتهم التي يستطيع معرفتها صغارهم وكبارهم ومثقفوهم ومتعلموهم، هي اللغة المعاصرة او اللغة الحديثة التي

لا تمتدّ في العمر الى اكثر من ثلاثمئة عام، فاذا وصلت الى ما قبل اربعمئة عام استعصت عليهم، وانبهمت آدابها، واضطروا الى تيسيرها وتقريبها للدارسين في مختلف المراحل بتعليمهم نماذج مختصرة مبسّطة في طبعات خاصة، ثم بتقديم الاصول مقرونة بشروح مسهبة لتوضيح غوامض اللغة وغرائب الاسلوب. اما ما قبل ذلك فتكاد تكون لغات آدابهم لغات اخرى مختلفة عن لغتهم التي يعرفونها ويفهمونها الآن. ولكن اللغة العربية التي نعرفها ونكتبها ويتحدث بها فصحاؤنا انما هي لغة واحدة مستمرة ممتدة على مدى سبعة عشر قرنا، وكثيراً ما نقرأ شعراً جاهلياً وأموياً وعباسياً فنحسّ كأنه كتب لنا في ايامنا هذه. ولا حجّة لمن يستشهد بأبيات فيها كلمات غريبة وتراكيب مستعصية من وصف الصحراء او حيوانها او ما يشبه ذلك من الموضوعات التي انفصلت عن حياتنا، وأصبحت غريبة عنا، فانفصلت بذلك ألفاظها وتعابيرها وأصبحت عسيرة على فهمنا. فهذا ارتباط طبيعي بين الموضوع والتعبير، أو بين المضمون والشكل. ونستطيع ان نختار مئات النماذج من نثرنا وشعرنا خلال العصور المتعاقبة من مأنوس الكلام ومفهوم المعنى، وننشّىء عليها اطفالنا، ونربي من خلالها اذواقهم، ليتمرسوا ـ في المراحل المختلفة ـ بأسرار بيان لغتهم، ويألفوا بهجة ديباجتها ونصاعة تعابيرها، بدل الاغتراب عنها، والتخبّط فيما يلقّنونه من بعض هذه الأساليب الحديثة، التي ارتضخ اكثرها العجمة، وارتضع الضعف، فألفاظها ـ حين تتفرق ـ عربية، ولكنها تتناكر وتتنافر حين تجتمع في جملة متصلة.

أليس هذا ايضا موضعا من مواضع التفكير والتدبّر، ومعرفة اختلاف اللغات وآدابها وما يناسبها من أساليب التدريس؟

وأسباب ضعف تعلم اللغة العربية كثيرة، بعضها منّا، وبعضها مدسوس علينا، تضافرت جميعها، فاستعان بها غيرنا ليوهمنا ان هذه اللغة في جوهرها معقدة صعبة، وان ضعف تحصيلها والمعرفة بها انما سببه اللغة نفسها، وليس هذه الاساليب الغريبة عنها المخالفة لطبيعتها. واخذ هذا الوهم يشيع بيننا، ويستقرّ في نفوسنا، حتى اصبحنا نحن الذين نردده ونؤكده. ونسينا تاريخ هذه اللغة حين اشترك كثير من غير اهلها في بنائها الثقافي الحضاري، فكان من هؤلاء المفسّرون والمحدّثون والرواة والكتّاب والشعراء والعلماء والنحاة واللغويون، ينتسبون الى مختلف البقاع الاسلامية في اصولهم او في نشأتهم، ومنهم من تعلّم العربية ولم تكن لسان طفولته، فنبغ فيها، وكتب وألّف، بل صار معلما للعرب يعلمهم قواعد لغتهم ونحوها وصرفها وبلاغتها ونقدها. ولم يقل احد منهم حينئذ ان العربية لغة صعبة ليصرف نفسه ويصرف الناس عنها. فما بالنا اليوم نسمع هذا، ونقوله. ونصدّقه، ونجد فيه العذر الذي نتكّىء عليه ليسوّغ لنا جهلنا بلغتنا أو ضعفنا فيها.

أيها العلماء الأجلاء

أيها السيدات والسادة

هذه مجموعة خواطر أضعها امامكم وانتم تبدأون اعمال مؤتمركم. ولا يجوز لها ولا لغيرها ان تكون سببا لاغلاق الابواب امام الجديد، ولا سببا للجهل بتجارب الامم واساليبها، وانما هي دعوة الى الدراسة وامعان الفكر، لنقبل من كل ذلك ما نقبل عن بيّنة ومعرفة، ولنختار منها ما يناسبنا لا ما يدسّ لنا أو يفرض علينا.

أيها العلماء أعضاء المؤتمر

كما أسعدني أن أستهلّ حديثي بنقل تحيات جلالة الحسين المعظم وترحيبه، فانه يسعدني ان اختم هذا الحديث بابلاغكم اطيب أماني جلالته لكم أن يتعهّد الله تعالى جهودكم، وأن يوفقكم في اعمالكم، وان يكلأ منظمتنا العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتبها لتنسيق التعريب، ومجامعنا اللغوية واتحادها، وجامعاتنا ومؤسساتنا العلمية، وان يجعلها دائما عامرة بالمخلصين مزدهرة بالعلماء المتبصرين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته